نظريـــــــة الفعل التّواصـــــــلي عند هابـــــر ماس

د. آمـال عبد الواحـد الفيتـوري ــ قسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة الزاوية

الملخّـــــص:

تُـعد نظريـــة التّواصل عند هابر ماس من المفاهيـــم المركزية في الفلســفة المُعاصرة، حيث لم يعد الاهتمام بالتواصل منحصرٌ في المجال التّداولي المرتبط بتبادل المعلومات وتقنيات تبلغيها وايصالها؛ بل أصبحت نظرية علمية وفلســفة مستقلة بذاتها. ومن أجــل ذلك حاولنا التّعرف على نظريـــة الفعل التواصلي عند هابر ماس والتركيز على أهم وأبــرز النظريات لديه.

الكلمات المفتاحيـــــة : الفعل هابر ماس الاتصال التواصلي، - اللغة – الذات.

Habermas's theory of communicative action

Abstract in Arabic:

Habermas's theory of communication is one of the central concepts in contemporary philosophy, as interest in communication is no longer limited to the communicative field associated with the exchange of information and the techniques of communicating and delivering it , but has become a scientific theory and an independent philosophy in itself.

For this reason, we tried to learn about Habermas' theory of communicative action and to focus on his most important and prominent theories .

Keywords: Habermas action, communicative communication, - social dimension - Language - Self.

المُقدمـــــــة:

تحــرّر هابر ماس (*) مـن فلســـــفة التأمـل الـذاتي التـي طغـت علـى تفكــيره فـي مرحلة الشباب وتحــوّل إلى مرحلة أخرى يُمكـن أن يطلـق عليهـا المرحلـة التأسيسـية المتمثلة في نظريـة (الفعـل التواصـلي) ، فتحـوّل مـن فيلسـوف يهـتم بالموضـوعات الاجتماعية إلى مُفكّر يهتم بالقضايا والتّواصل بين الذوات موضـوع الأسـس النظريـة لفلسفة تدور حول التواصل مـن خـلال اللغـة ، والشـيء الـذي دفـــع هـابر مـاس إلـى التحول اللغوي هو عجز التيارات السابقة عن إنتاج الأسس المعياريـة لنظريـة النقديـة للمجتمع ، وقد تبلور هذا فـــي مشروع فلسفي انتهى بوضع نظرية الفعل التواصلي.

إشكاليـــــة الدراســـة وتساؤلاتها :

يكمن الســـؤال هنا ما هـي الملامـح الأساسية لنظريـة هـابر مـاس ، ومـاذا يعنـي بالفعل التّواصلي ، ومـا هـي الأسـس التـي استند إليهـا فـي هـذا التواصـل ، ومـن هـو المســـؤول عـن العمليـة التواصـلية وفاعليتهـا هـل اللغـة أو غيرهـا؟ ولمـاذا ركّـــز هابر ماس على الفعل التواصـلي ؟ وغيرهـا مـن الأسـئلة التـي سـوف نحـاول الإجابـة عليها من خلال طرحنا لهذا الموضوع.

أهداف الدراسة :

1ـ التعرف على ماذا يعني بالفعل التواصلي .
2ـ معرفة الأسس التي استند إليها في هذا التواصل .
3ـ معرفة المسؤول عن العملية التواصلية وفاعليتها هل اللغة أو غيرها .
4ـ معرفة سبب تركيز هابر ماس على الفعل التواصلي .

منـهج الدراسة :

أما المنهج الذي استخدمته في هذه الدراسة كان المنهج التحليلي لتحليل مختلف زوايا الدراسة.

الدراسة النظريـــــة :

أولاً ـ مفهوم الفعل التواصلي في اللغـــة:

للفعل التواصلي العديد من التعريفات في المفاهيـــم والموسوعات والقواميس نذكر منها : التعريف الذي ذكر في معجم لسـان العـرب وهـو اتصـال فـلان بفـلان ، أي : اجتمع به وقابله"[1]، وأما في القاموس المحيط فيرى أن التواصل مشتق من الوصـل، وصل ، يصل، صل، والمفعول به موصل[2]، وأما فـي المعجـم الوسـيط يعرفـه علـى أنه: الشيء الذي أوصل إليه رسـالة أو وصـلة حقـه"[3]، ويعرفـه الزبيـدي علـى أنـه: الوصل بين الشخصين أو الطرفين ، أي : الـربط بينهمـا[4]، وأمـا الجرجـاني فيعرفـه على أنه " هو تواصل الصديقان وواصل إحداهما الآخر في اتفاق ووئام"[5].

مفهوم الفعل التواصلـــــي اصطلاحاً: يعرّف الفعل التواصـلي اصـطلاحاً علـى أنـه عملية نقل معلومة أو خطاب من مرسل إلى مستقبل ، أو من باعث إلى متلقي[6] ، كمـا يعـرف علـى أنـه : مركبـات ومفارقـات واختلافـات ؛ نظـراً لأن الرسـالة التـي يـراد تبلغيها ليست واضـــحة علـى الـدوام ودقيقـــة [7]، فعمليـة التواصـل تتصـف دائمـاً

بخاصية التعقيد وتستلزم السؤال والاستفهام والدراسة ، ويعرف الفعل التواصلي - أيضاً - على أنه تواصل بين ذاتين قادرين على الحوار شريطة سلامة اللغة والكفاءة والفهم ؛ إذ لا تواصل بدون فهم متبادل أثناء العملية الحـــوارية [8].

فالتواصل لا بد أن يقوم على أربعة ركائز أساسية هي :

ـ المرسل Emelteur هو الذي يصدر منه فعل الكلام.

ـ المستقبل Recettemer هو المستمع الذي يتلقى الكلام.

ـ الرسالة Message هو يمثل محتوى الكلام ومضمونه.

ـ القناة Cahal هي الوسيلة التي تنقل الكلام[9].

هنا يظهر لنا جوهـــر وروح الفعل التواصلي بين شخص وآخر.

مفهوم الفعل التواصلي عند هابر مارس:

عـرّف هابر ماس الفعل التواصلي بأنه : تلك الأفعال التـي تكـون منهـا مستويات الفعل بالنسبة للفاعلين المنتمين إلـى العمليـة التواصـلية غير مرتبطـة بالسياسـة ؛ بـل مرتبطة بأفعال الفهم.

فالفعل التواصلي عنده هو تفاعل بين شخصين قادرين على الكلام فيؤسسـا علاقـات من خلال الفهم المشترك[10].

إذن التواصل عند هابر ماس يحمل أكثر من دلالة فهو تواصل مع الحداثة وتواصـل بين الأفراد، وتواصل بين المفـاهيم فهـو فعـل نقـدي وسياسـي وفلسـفي قوامـه الحـوار الأخلاقي والعقلاني الهادف[11].

من خلال هذه التعاريف المعطاة حول التواصل يظهر أنه ذو بعد اجتماعي، لأنه يخلق شرط أساسي وهو وجود طرفين فما فوق لتستقيم هذه العملية.

ثانياً ـ مراحل نظرية الفعل التواصلي:

الفعل التواصلي حسب رأي هابر ماس يمر بثلاثة مراحل رئيسية يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1ـ مرحلة التفاعل الذي تتوسطه الرمـوز: وهذه المرحلة تقـوم علـى فـاعلين الأولـى القول والثانية الفعل، فعن طريق الرمز التواصلي يتم التعبير عن رغبة فـي سـلوك مـا عن طريق النية في تحقيق القول لتلبية تلـك الرغبـة، ومـدلول القـول يحـدد كـل منهمـا الآخر[12]، هذا يعنى عندما تكون لذي الإنسان الرغبة الحقيقيـة فـي تحقيـق سـلوك مـا فهنا يصبح القول مطابق للفعل.

2- مرحلة الخطاب المتميز بالنسبة لمضمونه : في هذه المرحلة ينفصل القول عن الفعل، فلا يمكن الاستناد إليهما بالنسبة للشخص الفاعل فقط؛ بل يدخل هنا موقف الشخص الملاحظ، أو المشارك في الحوار، وهنا يمكن التبادل في التصورات بين المشاركين في الحوار لذلك يمكن التنسيق بين رغبتين متبادلتين في السلوك، بحيث يشكلان نظاماً من الدوافع المشتركة والمتكاملة، وهنا يتشكل الدور الاجتماعي، وفي هذه تتميز الأفعال عن المعايير[13].

3- مرحلة الخطاب البرهاني: وهنا تتشكل مقتضيات الصلاحية التي تربط بجانبين الأول أفعال اللغة المنجزة بالمرحلة الأولى، والثاني معالجة افتراضات المعايير بحيث تكون قابلة لأن تكون شرعية أو غير شرعية[14].

ثالثاً ـ الغاية من نظريـــة الفعل التواصلي عند هابر ماس:

في زمن التحولات الكبرى على صعيد الفلسفة وعلى صعيد الخريطة الجيوسياسية العالمية، حمل هابر ماس حملة شعواء على الميتافيزيقيا يستبعد فيها تقليد مدرسة في فرانكفورت حيث التأكيد على أن ليس من شأن الفلسفة اليوم أن نتأمل معرفة المطلق، فاعتقد هابرماس أن الفلسفة المطلقة كانت تشكل عائقاً أمام تطور العقلانية حيث تصورت أنها تملك الحقيقة والعقلانية التي يريدها هابرماس في المجتمع المعاصر، ولتوسيع هذه العقلانية الجديدة انتقد الاتجاهات الوضعية المعجبة بالعلم، فعلى الفلسفة مسئولية النقد على كل هيمنة تعمل على تحويل الإنسان إلى سلعة [15].

وإذا كان التفاهم والحوار والتواصل هو الغاية القصوى للفعل التواصلي فإنه لا يمكن تصوّره بين الأطراف المتجاورة إلا بشـــروط من أهمها عدم تأثير طرف على آخر لأن هذا يؤدي إلى فشل التواصل والحوار والنقاش، يقول هابرماس في ذلك "إن نشاط التفاهم المتبادل يخضع لشروط أساس به يحقق المعنيون مشروعاً لاتفاقهم المشترك فهم يسعون لتفادى فشل التفاهم أو سوء الفهم"[16]. و- أيضاً - يرفض هابرماس إلى إنجاح التواصل والتفاهم الخلط الشائع بين الإنسان ككائن اتصالي وككائن تواصلي، لذلك ميز هابرماس بين الإنسان بخاصية الوعي والتعقل، مؤكداً على أن للفلسفة الغربية بأسرها قامت على مبدأ التواصل بين العقل والعالم ولاستمرارية، وبين مختلف المعارف، ولهذا ينظر إلى التواصل في المشروع الحداثي على أنه "تغلغل عبر الذاكرة وعبر التاريخ وهذا ما يفيد في بلوغ الآفاق البعيدة للثقافة والمجتمع"[17].

وهكذا أصبح التواصل عند هابرماس "الصوت الوحيد القادر على توحيد العالم، وابتعد عن كل المرجعيات القديمة التي تضعف التواصل نفسه"، فالعقل التواصلي لدى هابرماس تمكن من تكريس الإرادة التي يعتبرها تصور معيارياً، ولهذا يؤكد هابرماس على الجانب الاتصالي لأفراد المجتمع.

رابعاً ـ دور اللغة في نظرية العقل التواصلي عند هابرماس:

إن حجر الأساس الذي وضعه هابرماس لبناء نظريته في التواصل هو التأكيد على فاعلية اللغة في أساس الفعل التواصلي ؛ إذ لا بد من الالتزام بها في الحوار باعتبارها كل متكامل من الرموز يقول في ذلك "لابد من الالتزام المشترك للرموز ذاتها بالنسبة إلى مجموعة الذوات التي تتواصل مع بعضها البعض في اللغة ذاتها"[18]، فاللغة نتاج جماعي تمكن الفرد من الاتصال والاحتكاك بغيره وهي التي تحدد الفرد كشخص عيني في المجتمع الذي ينتمى إليه، وهذا ما يؤكده هابرماس عندما قال : "إن الكائن الطبيعي لا يمكن أن يصبح شخص مفكر عاقل إلا إذا خرج إلى الوسط العام لمجتمع لغوي"[19]، إذن اللغة هي عنصر تشكيل الذات وهي عبارة عن حوار بين عقول المتحدثين ترمي إلى خلق التفاهم والحوار.

فاللغـــة ليست نسق مغلق على ذاته بقدر ما هي فاعلية للتواصل والحوار المتبادل، وعليه يصبح التواصل هو الفعل الذي يخرج الوعي الذاتي من باطنه نحو الانفتاح على الآخر، وفهمه والتحاور معه بواسطة اللغة.

ومن الأسباب التي دفعت هابرماس إلى إدخال اللغة كعامل لبناء نظريته لفهم العلاقات التواصلية، ولتعزيز تصوره للفعل التواصلي من أجل فهم أفضل للعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع، ويرى أن الفعل التواصلي نميزه عن غيره من الأفعال الأخرى بأنه لا يسعى للبحث عن الوسائل التي يمكنه من التأثير في الغير، بل يبحث في كيفية التوصل إلى تفاهم معه وتوافق متبادل.

النتائـــــج :

1ـ إن حجر الأساس الذي وضعه هابرماس في بناء نظريته في الفعل التواصلي هو التأكيد على فاعلية اللغة باعتبارها هي الوسط الأساسي للتواصل بين الذوات.

2ـ حاول هابرماس خلق حوار خالي من الهيمنة ليصل بالعقل إلى أعلى مستوى من النضج.

3ـ من أسباب نجاح نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس هو سعيه الدائم لتحقيق التفاهم والاتفاق بين أفراد الجماعة التواصلية لحل القضايا الفلسفية.

4ـ رغم أهمية الفعل التواصلي لدى هابرماس والذي يسعى من خلاله إلى خلق روح التفاهم والحوار إلا أن تنفيذ ما يذهب إليه يبقى صعب التحقيق نظراً لتعدد التوجهات البشرية وتباين مستويات التعليم والتربية بين الأشخاص.

5- أراد هابرماس أن يؤسس فضاء عام يكون فيه أفراد متفاعلين من خلال التواصل والحوار وحل القضايا ومعالجتها عن طريق اتفاق جماعي.

6- الفعل التواصلي عند هابرماس يتميز عن غيره من الأفعال ؛ لأنه لا يسعى للبحث عن الوسائل التي تمكنه من التأثير في الغير بل يبحث في كيفية التوصل إلى تفاهم وتوافق متبادل.

7ـ تتم عملية التواصل من خلال التفاعل بين العالم الخارجي وبين الذوات الأخرى باعتبار اللغة هي الوسيط في النشاط التواصلي وعن طريقها يتم التفاهم والحوار.

8- على المشارك في عملية التواصل أن يعبر بصدق وأن تكون له القدرة على تبرير موقفه في عملية الحوار والتفاهم.

9ـ أعاد هابرماس الثقة في الحداثة الغربية بالكشف عن منطق يمثل عقلانية العقل.

الهوامـــــــش :

(*) ولـــد هابرماس في 18 جويليـــه عام 1929م بمدينة دوسلدوف بالمانيا اشتغل علـــى نقد الفكر الوضعي وبناء نظرية اجتماعية قائمة على الحوار، ومن أهم مؤلفاته التحول البنيوي، النظرية والممارسة المعرفة والاهتمامات الإنسانية، نظرية العقل التواصلي. يورغن هابرماس المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر، مراجعة إبراهيم الحديدي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م، ص151.

(1) ابن منظور: لسان العرب، مج7، ط3، دار صادر، بيروت، ص586.

(2) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مج2، تحقيق مكتب التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، 2005م، ص839.

(3) احمد الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، مج3، ط1، دار العودة، القاهرة، 1983م، ص645.

(4) الزبيدي: تاج العروس، مج تحقيق عبدالستار، ط1، دار الهداية، الكويت، 1965م، ص730.

(5) الجرجاني: التعريفات، مج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1983، ص141.

(6) أبو النور حمدي: الأخلاق والتواصل، التنوير للطباعة، ط1، بيروت، 2012م، ص49.

(7) فريد فرانك: حدود التواصل، ترجمة عز العرب الحكيم، ط1، الدار البيضاء، 2002م، ص15.

(8) ناصر عبداللاوي: التواصل والحوار في الفكر الفلسفي المعاصر، ط1، دار الفارابي، لبنان، 2015م، ص130.

(9) يورغن هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، ترجمة عمر مهيبل، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010م، ص18.

(10) يورغن هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، مصدر سبق ذكره، ص65.

(11) إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ط1، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1999م، ص320.

(12) إيان كريب: النظرية الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص36.

(13) محمد نور الدين: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، ط2، دار افريقيا، بيروت، 1998م، ص73.

(14) أبو سعود عطيات: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، ط1، منشأة المعارف، الكويت، 2002م، ص303.

(15) يورغن هابرماس، مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو مسألة الليبرالية، ترجمة جورج كتورة، ط1، المكتبة الشرقية، بيروت، 2006م، ص122.

(16) يورغن هابرماس: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو مسألة الليبرالية، مصدر سبق ذكره، ص312.

(17) يورغن هابرماس: المعرفة والمصلحة، مصدر سبق ذكره، ص120.

(18) يورغن هابرماس: المعرفة والمصلحة، مصدر سبق ذكره، ص135.

(19) يورغن هابرماس: المعرفة والمصلحة، مصدر سبق ذكره، ص138.